مذاهب الفلسفة الرئيسية

للمرحوم محمود مرسي

الفلسفة عبارة عن اسمى ما وصل اليه العقل البشري من الآراء والافكار في البحث عن حقائق الكون وازاحة الستار عن اسرار الوجود وانا اذا التفتنا الى درجة المعارف والعلوم التي استطاع الانسان بلوغها الى اليوم نجد انهُ قد جاء حقًّا بالغرائب المدهشات فما هي هذه الفترة اليسيرة من الزمن منذ فجر تاريخ العلم والفلسفة الى يومنا الحاضر بالقياس الى الادوار التي سوف يمرّ عليها في مستقبل الايام

وفي الفلسفة كما في أيٍّ من العلوم والفنون مذاهب متباينة ان لم تكن متناقضة وقد نشأت بها المذاهب منذ اول عهد الفلسفة اليونانية وكان اولها ما يتعلق بمادة الكون الاصلية العامة التي ذهب اول فلاسفتهم طاليس الى انها الماء . واعتقدها غيره الهواء . وذهب هرقليط الى ان النار مصدر العناصر . اما امبدوكليس فزعم ان المادة الاصلية لا توجد الاّ مركبة من العناصر الاربعة معاً وهي التراب والماء والهواء والنار . ثم ما لبث ان أضاف اليها عنصراً آخر الاّ انهُ غير مادي زعم انهُ الحب وهو القوة المحركة الكامنة وراء العناصر المذكورة كلها . وان اضافة هذا العنصر الروحي الى العناصر الاخرى يعد خطوة كبيرة في عالم الفلسفة

ثم كان مذهب التغير والثبوت . وهما موضوع حوار عنيف قام بين المدرسة الايونية صاحبة مذهب التغير والمدرسة الايلياتية القائلة بمبدأ الثبوت . وموضوع الحوار هو : هل مبدأ الوجود ثابت او متغير . وكان القول الفصل في ذلك للوسيبوس وديمقراط مؤسسي مذهب الذرات . وقام بعدهم اهل السفسطة والجدل يحاولون هدم حصون المعرفة وتقويض اركانها . وقد كان يخشى كثيراً على دعائم الفلسفة ان تهدّم لولا ان قام الفيلسوف سقراط يناضل عنها نضالاً شديداً حتى ردّ الخصوم على أعقابهم وشيد مبادىء الفلسفة وعلم الاخلاق على أسس ثابتة ودعائم متينة لا تزال تذكرها لهُ الاجيال بكل اعجاب واطراء . ثم كان مذهب افلاطون المثلي يقابلهُ من

الجهة الثانية مذهب ارسطاطاليس العقلي — المادي . وقد كان افلاطون يزعم ان الوجود الحقيقي هو لعالم العقل او الصور العقلية فقط وما عالم المادة الا تابع لا شأن لهُ . فمذهب ارسطاطاليس الى ان الصورة والمادة مما شيئان متلازمان لا ينفصلان ولا يستقل احدهما عن الآخر . فعالم المحسوس اي الذي يتركب من الصورة والمادة هو العالم الحقيقي لا العالم العقلي وحدهُ كما زعم افلاطون . هذا ولا يجهل انسان مادار من المناقشات الخطيرة بين الرواقيين والابقوريين مما لا يزال لهُ صدى كبير واثر يمتد الى يومنا هذا ولكل من هذين المذهبين انصارهُ ومؤيدوه في كل عصر

بيد أن هذه المذاهب جميعها لما كانت لا تستند الى حقائق علمية ثابتة اذ لم يكن حينذاك ما يسمى علماً بالمعنى الصحيح ظلت متقلقلة مضطربة لا يعول عليها . لذلك نرى أن مذاهب الفلسفة لم تتخذ صفة ثابتة راهنة الى ان كان العصر الذي توالت فيهِ الاكتشافات والحقائق العلمية الراسخة وذلك في اواسط القرن السابع عشر فما بعدهُ ومن هذا العهد يبتدىء دور الفلسفة الحديثة او دور التجديد الفلسفي

اما مسائل الفلسفة التي أخذت تشغل عقول ارباب الفلسفة في الدور الحديث فعديدة اهمها مسألة الوجود المطلق . ومادة الكون الاصلية . والعالم الخارجي . ومنشأ العقل وماهيتهُ . ومصدر المعرفة . وحرية الارادة . والقوة الادبية او الضمير وما شاكل . والفلاسفة في هذه المسائل فرق وطوائف فمنهم اصحاب المذهب العقلي (Rationalism) مثل ديكارت ولينتز وسبينوزا وكانت . وهم الذين يقولون ان مصدر المعرفة العقل . يقابلهم من الجانب الآخر اصحاب المذهب الحسي (Sensationalism) وهم الذين يزعمون ان الحس اصل كل معرفة ولا يمكن ان تحصل معرفة الا عن طريق الحواس . وقد أدى هذا الاختلاف النظري في اصل المعرفة الى نظريات وآراء متباينة كل التباين في الادوار الفلسفية التالية . وهناك اصحاب المذهب التصوري (Idealism) اي الذين يقولون أن العالم الحقيقي هو غير العالم الذي تدركهُ الحواس فالحواس لا تدرك الا بعض ظواهر المادة واوصافها فقط أما . المادة نفسها فلا سبيل مطلقاً الى معرفتها ومن هؤلاء كانت وهيوم وهملتن وسبنسر وميل وغيرهم . يقابلهم من الجهة الاخرى اصحاب مذهب الشعور او الحس المشترك (Common-sense School) ويذهب هؤلاء الى ان العالم الحقيقي هو ما شهدت بهِ الحواس واتفق عموم البشر عليهِ كما دلت عليهِ البديهة ولا سبيل الى نكرانهِ . وزعيم هذه المدرسة هو الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد وتابعهُ في ذلك الفلاسفة اسوالد وستيورت ومكوش . ومنهم من يرى في القوة سر الوجود بل غاية الوجود وزعيم هذا الرأي هو الفيلسوف نيتشه ولكن اتباعهُ من اهل الفلسفة قليلون . وهنالك من يعتقد ان حقيقة

الاشياء فائدتها العملية — (Pragmatism)فالفكرة التي تقترن بالنجاح وتؤدي الى المنفعة والخير هي الفكرة الحقيقية ومن هؤلاء بيتشه ووليم جيمس وديوي الفيلسوفان الاميركيان . وديوي هو صاحب التأليف المشهور في « المدرسة والاجتماع » . وهناك مذاهب وآراء متنوعة غير ما ذكر . غير ان الغرض من هذا المقال هو الاشارة الى المذاهب الرئيسية في الفلسفة . على اني سأتناول البحث في اهم هذه المذاهب وأشهرها وهما اللذان يدوران حول هاتين المسألتين أصل المعرفة والعالم الخارجي

١ — مصدر المعرفة

اختلفت آراء الفلاسفة منذ القديم في مصدر المعرفة وهل هو العقل ام الحواس وقد انقسم الفلاسفة في ذلك الى فريقين كبيرين فريق يرى العقل مصدر المعرفة ومبدأها وهم اصحاب المذهب العقلي وفريق يزعم الحواس مبعث المعرفة وسبيل الادراك الوحيد ولا سبيل سواه وهؤلاء هم اصحاب المذهب الحسي . فني مقدمة الفريق الاول الفلاسفة سبينوزا وديكارت وليبنز وكانت . اما زعماء المذهب الحسي فهم لوك وهيس وهيوم . وانهُ وان كان هذا المذهب يرجع في اصل نشأته الى عهد فلاسفة اليونان فان مؤسسهُ بالفعل ووفقاً للحقائق العلمية الراسخة هو الفيلسوف الانكليزي جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) وذلك حين وضع كتابهُ المشهور «الادراك البشري » الذي أحدث حركة عظيمة في عالم الفلسفة . وقد أبان فيه لوك كيفية حصول الادراك بواسطة الحواس فقط . وهو يرد كل نوع من انواع المعرفة الى الحس البسيط المجرد مؤيداً ادلتهُ بالحقائق العلمية السيكولوجية . ولكن لم يكد ينتشر كتابهُ هذا حتى قام عدد من اصحاب المذهب العقلي يفندون آراءه وينقضون الأسس التي شيد عليها نظرياته ومقدماته

ماذا يقول لوك ؟ يقول ان عقل الانسان عند الولادة يكون عبارة عن صفحة نقية خالية من كل أثر الا انها قابلة التأثر بأي مؤثر خارجي كان او داخلي . وما العقل الا تلك القوة على المقابلة بين الاحساسات المتواردة على الذهن والموازنة بينها او حفظها من حين الى آخر (الذاكرة) ثم انهُ من هذه الخاصية او قابلية الموازنة والمقابلة يتولد الفكر وبواسطة الفكر يستطيع الانسان ان يركب او يحلل ما شاء من تلك الاحساسات المتوالية بغير انقطاع على صفحة الذهن . فكل انواع المعرفة بسيطة كانت ام مركبة تنشأ طبعاً من هذا الاحساس البسيط المجرد . اما ما يدعيه العقليون من وجود اصول اولية في العقل تمكنهُ من ادراك المدركات فانا اذا امعنا النظر قليلاً نجد ان هذه التي يراها العقليون اصولاً يمكن ردها الى أوليات بسيطة مفردة . فلنأخذ مثلاً قوة التعليل وهي احدى اصول العقليين . كيف تنشأ هذه القوة فينا ؟ انا اذا دققنا النظر نجد

انها تعود في الاصل الى مشاهدتنا للحوادث والاشياء الطبيعية مراراً وتكراراً . ولكون هذه الحوادث تتبع سنناً ونواميس ثابتة لا تتغير فانها تمكن بمجرد من تلك الحوادث الفردية قواعد ومبادىء عامة تتناول تلك الاشياء كلها وتصدق عليها جملة . وهذه القوة على تجريد القواعد العامة تتخيلها فينا قوة على التحليل والاستنتاج وهي في الحقيقة الا نتيجة مشاهدات فردية بسيطة في أول الامر . وعلى هذا النحو يحاول لوك هدم معتقد العقليين في الغرائز والاصول العقلية . فلنر ماذا يقول العقليون :

يقول العقليون انهُ لامر حقيقي ان مبادىء المعرفة تبتدىء باحساسات الحواس ولكن ما قيمة هذه الاحساسات والمؤثرات المتوالية على الحواس بغير قاعدة او نظام ان لم يكن هنالك ما يجمع او يفرق بينها ويرد كلاً منها الى الاصل الذي وردت عنهُ . وبالجملة يقيم من تلك الاحساسات المضطربة المختلفة وحدة كاملة صحيحة متسقة . وما أشبه العقل واحساسات الحواس في ذلك بالبناء ومواد البناء . ما قيمة هذه المواد المتفرقة المتنوعة ان لم يكن هنالك بنّاء ماهر يتناولها واحدة واحدة ويجمعها بعضها الى بعض ويرصفها رصفاً منتظماً صحيحاً . ان العقل الانساني لا يمكن ان يكون تلك الاداة الجامدة التي لا وظيفة لها الا اقتبال المؤثرات وانطباعها عليها . بل ان العقل هو تلك القوة الحية الفعالة التي تتناول احساسات الحواس فتبين ماهيتها وتضبط انواعها وتركبها او تحللها وفقاً لمبادىء واصول فطرية فيه غير مكتسبة من الخارج . وان من هذه الاصول او القوى قوة التحليل والتجريد والاستقراء وما شاكل وهذه هي وسائل العقل لحصول المعرفة حتى في أبسط انواعها وبغير ذلك لا يمكن حصول اي معرفة او ادراك . وان لكل من اصحاب الرأي الحسي والعقلي أدلة وبراهين لا يتسع المجال لذكرها هنا فمن شاء الوقوف عليها فليراجع مقالنا في مجلة الكلية (المجلد ١٤ العدد ٦) تحت عنوان « المذهب الحسي ازاء المذهب العقلي » يجد تفصيلاً وافياً بالمراد

٢ — العالم الخارجي والمذهب التصوري

لم تشغل مسألة من المسائل عقول أهل الفلسفة كما شغلتهُ مسألة العالم الخارجي ومدار البحث فيها هو هل هذا الوجود الخارجي الذي تمثلهُ لنا الحواس هو عين الوجود في الخارج وهل الحقيقة التي يستخلصها العقل عن الاشياء بواسطة الحواس تطبق تماماً على حقيقة هذه الاشياء كما هي في الخارج . ان الفلاسفة في ذلك فريقان فريق يرى ان الوجود هو ما شهدت به الحواس وشاعت معرفتهُ بين عموم البشر وهؤلاء هم فلاسفة الشعور والحس المشترك على ما تقدم . وفريق يرى انهُ يستحيل ادراك الحقيقة بالذات بل ببعض ظواهرها ومجالها أما الحقيقة نفسها فمحجوبة

ابدأ عنا وهؤلاء هم المعروفون باصحاب المذهب التصوري . اما رأي الفريق الاول فواضح لا يحتاج الى بيان خاص واما الثاني فلا بد من كلمة توضح وجهة النظر فيه

يعزى منشأ الرأي التصوري في الدور القديم للفيلسوف افلاطون. فقد كان من مبادئه اننا لا نستطيع ادراك الحقيقة بالذات او معرفتها تماماً كما هي في الخارج ولكننا ندرك ما يشبه منها ظلالها وخيالاتها . ولافلاطون في هذا الصدد تمثيل جميل يوضح المراد من المبدإ التصوري انما لا يتسع المجال لذكره هنا . بيد انهُ لما كان الرأي الافلاطوني هذا لا يستند الى اساس علمي او حقيقة سيكولوجية واضحة فان هذا المذهب لم يتخذ دوراً جديًّا الاَّ في عهد الفلسفة الحديثة وقد نشأ بنشوء الرأي الحسي كما وضعهُ الفيلسوف لوك وبيانًا لذلك نقول :

قد كان من مبادىء لوك انهُ قسم صفات الاشياء الى قسمين الاول الصفات الاصلية المختصة بالمادة والملازمة لها غير قابلة الانفصال عنها وقد سماها الصفات الاولية كالصلابة والامتداد والصورة والحركة والجمود وما شاكل . والثاني الصفات التي ليست مستقرة في الاشياء نفسها بل ما يجب ان يكون قوى او خاصيات في الصفات الاولية من شأنها احداث هذه التأثيرات في الحواس كالالوان والاصوات واحساسات الذوق وما شاكل . وقد دعاها لوك الصفات الثانوية . فالصفات الاولية هي خاصيات ذاتية مستقرة في نفس الاشياء المادية . اما الثانية فليست سوى ادراكات حسية حاصلة داخل النفس لا اشياء خارجة عنها وبعبارة اخرى ان الاولى مادية خارجية والاخرى نفسية باطنية. وقد تناول هذا المبدأ الفيلسوف بركلي الانكليزي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) فخطا فيه خطوة واسعة وفاجأ العالم بفكرته الغريبة المدهشة التي احدثت دويًّا هائلاً في عالم الفلسفة وهي قولهُ : اذا كان الامر كما يقول لوك ان بعض خاصيات المادة التي يدعوها ثانوية كالالوان والاصوات وغيرها ليست الاَّ مجرد تأثرات عقلية وادراكات نفسية داخلية لا اشياء خارجية في الاشياء ذاتها فاذا يمنع ان تكون بقية الخاصيات كالاشكال والانتقال والحركة والامتداد وغيرها من الصفات الاولية ايضاً ادراكات وصوراً عقلية لا اشياء خارجية كما نتوهم بل نعتقد

ومحصل رأي الفيلسوف بركلي هذا هو ان غاية ما نستطيع ان نجزم به هو توالي الاحساسات على مشاعرنا والتأثيرات التي نعتقد انها ناشئة فينا عن امور واشياء خارجة عنا . اما اذا كان هنالك اشياء خارجية تنشأ عنها هذه الاحساسات فهذا ما لا يمكننا الجزم به اصلاً فقد يجوز ان يكون هنالك اشياء باعثة على الحس وقد لا يكون

وواضح ان رأي بركلي هذا هو نوع من التطرف في المذهب ولكن كان لهُ تأثير عظيم في تعزيز المبدأ الروحي كما هو ظاهر . اما المتعارف عند اصحاب هذا الرأي فهو غير ذلك. ولعل رأي الفيلسوف كانت هو أقربها الى حقيقة المذهب وخلاصتهُ انهُ لا مندوحة لنا من الاعتراف

بوجود الاشياء في الخارج ولكننا لا نستطيع ان ندرك منها سوى بعض ظواهرها فقط (Phenomena) اما حقيقة الاشياء وماهيتها فذلك ما لا نرجو الوصول الى معرفته البتة وذلك لسببين الاول لان القوى العقلية فينا محدودة لا تستطيع ادراك جميع أوصاف المادة وخاصياتها كما يغلب الظن . والثاني لان العقل باضافة بعض الاجزاء العقلية الخاصة فيه كما تقدم كثيرة التحليل والتجريد وما شاكل قد يبعدنا عن الحقيقة ويجعلنا نتصور ما لا حقيقة له في الخارج او ما تختلف حقيقتهُ عن الحقيقة المائلة لاذهاننا . لذلك فان كانت فصل بين الشيء كما يبدو للحواس وبين الشيء في ذاته او حقيقته وقد سمى هذا الاخير الشيء بالذات Thing-in-itself تمييزاً لهُ عن الشيء كما يظهر للحواس . وقال ان غاية ما تستطيعهُ من حيث المعرفة هو ادراك ظواهر الاشياء فقط اما الحقيقة فستظل محجوبة عنا الى الابد

يتضح مما تقدَّم ان المذهب التصوري ليس ما يعتقده البعض من ان الوجود المادي ليس الاَّ مجرد تخيلات وتصورات عقلية كما يشير اليه لفظ هذه الكلمة Idealism او ظواهر لا تستند الى أشياء محسوسة وجودية . بل ان معرفتنا الاشياء تقتصر على هذه الظواهر فقط كما يصورها لنا العقل . اما حقيقة الاشياء وماهيتها فهي ما لا سبيل لنا الى معرفته بأي الوسائل والطرق وهذه الحقيقة قد أقرها معظم فلاسفة القرن التاسع عشر وفي مقدمتهم كونت وسبنسر ومل وغيرهم وقد سمى سبنسر هذه الحقيقة المحجوبة المجهول (Unknowable) اي الذي لا سبيل لمعرفته

وانا لندهش ويأخذنا العجب لدى اطلاعنا على هذه الافكار والمبادىء الغريبة التي يقرها أساطين الفلسفة ويؤيدونها بالأدلة العقلية ولكننا اذا تأملنا قليلاً بالحقائق والأسرار الناضحة التي تحيط بهذه الحقائق ذهب الكثير من عجبنا ودهشتنا . فنحن اذا أخذنا أبسط هذه الاشياء العقلية كالحس مثلاً أقلا لعجب من كيفية حصول ذلك فينا ؟ ان الباعث او المحرك للاحساس مثلاً مهما تقلَّب وتحوَّل في طريقه الى الدماغ فهو غير الاحساس الناشيء من ذلك الباعث ولا يمكننا ان نكتشف اي علاقة او شبه علاقة بين المؤثر والاحساس . ففي عمل الابصار مثلاً ان المؤثر هو حركة موجية في الاثير اما النتيجة فهي رؤية شيء خارجي ذي لون وشكل واضح وفي مكان محدود . فأي علاقة او شبه علاقة بين المحرك والاحساس الذي قام في الدماغ . كذلك ان الفرق بين اللونين الاحمر والأخضر انما هو في عدد الموجات في الثانية اما النتيجة الحسية فهي الفرق الجسيم بين هذين اللونين فهل من سبيل لنا كيفية ذلك تعليلاً فلسفيًّا .

لذلك فان منشأ حيرة أهل الفلسفة والعلم هو هذا البون العظيم الكائن منذ الأزل بين العقلي والمادي . بين البواعث او المؤثرات المادية والنتائج العقلية على نحو ما تقدَّم . ففي قضية العالم الخارجي مثلاً يهمنا ان نعلم العلم اليقين هل ادراكنا لهذا العالم والصورة الحاصلة في أذهاننا عنهُ

ينطبق تماماً على الحقيقة الخارجية . ألا يجوز ان تكون هذه الاشياء الخارجية والتي نحسها أشياء محسوسة خارجة عنا هي في الحل الأخير صوراً عقلية لا حقيقة لها في الخارج او ان تكون الحقيقة الداخلية تختلف عن الخارجية

***

ثم ان مسألتي الزمان والمكان والأسباب والمسببات [1] ألا يمكن ان تكون هاتان من وضع العقل كما زعم الفيلسوف الالماني كانت يخلعها العقل على أشياء وحوادث هذا الوجود ويستخدمها كوسائل لربط الحوادث والاشياء الطبيعية بعضها ببعض . وفوق ذلك ما أدرانا ان هذا العالم الذي يبدو لحواسنا ووجداننا كنظام جمالي وروعة ونظام تام ليس في الحقيقة الا عالم تشويش واضطراب كما تبدو كسر الزجاج الصغيرة المبعثرة في الكالدسكوب آية في الدقة والاحكام كاجمل ما نقش النقاش او رسم الرسام وما هي في الحقيقة الا كسر مبعثرة متفرقة هنا وهناك

ان هذه وأمثالها هي من عقد المسائل التي جعلت أهل الفلسفة يتفرقون طرقاً ومذاهب حتى يحار العقل في مدى ذلك الاختلاف ومبلغ ذلك التباين في الآراء والافكار . ولا يفوتنا في هذا الصدد اشارة الى المذهب المادي المشهور فهذا يدخل ضمناً تحت المذهب الحسي وأصحابه يعرفون بالفلاسفة الحسيين وقد كانت لهُ السيادة التامة على كافة المذاهب الأخرى طيلة القرن الثامن عشر وهو عصر فولتير وديدرو وروسو وهيلي ولامتري وكافة الانسيكلوبيديين الافرنسيين وجميعهم من أهل المذهب الحسي وبلغ منتهى الشهرة والسيادة في اواسط القرن التاسع عشر حين وضع بخنر الالماني كتابه في « المادة والقوة » . الا انهُ لم يكتب لهُ ان يعيش طويلاً بعد ذلك . ذلك لان الفكرة الاساسية في المذهب المادي هي الاعتقاد بناموس الضرورة الشامل . اي ان ما هو كائن لا بدَّ ان يكون . فهو كالمبدأ الفلسفي الروحي كلاهما ينافيان حرية الارادة ويجعلان الانسان حكمهُ حكم الاداة اي مجرداً من كل ارادة وحرية — الروحي يجعل الانسان خاضعاً لقوة روحية فائقة خفية لا يستطيع ادراكها تديرهُ كما تشاء وتصرفهُ على ما تشاء . والمادي يجعلهُ عبداً رقاً خاضعاً لاحكام الضرورة العياء . ولما كان الانسان يكره ان يرى نفسهُ عبداً رقاً لاي قوة كانت طبيعية او غير طبيعية فهو يرى أن هذين المذهبين لا ينطبقان على الحقيقة الواقعة ولهذا فلم يعد لها في نظره تلك المكانة التي كانت لها سابقاً

هذه إشارة وجيزة الى أشهر مذاهب الفلسفة بقدر ما استطعت استخلاصهُ من آراء أهل الفلسفة ونظرياتهم وربما عدت الى تفصيل بعضها في فرصة أخرى

---

(١) لهاتين المسألتين مباحث طويلة في كتب الفلسفة لا مجال لتفصيلها هنا